الغنائم أيها النائم

الشيخ الدكتور / علي بن عمر بادحدح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد للـه رب العـالمين ، والصـلاة والسـلام علـى خـاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين،وبعد.
فإن كل إنسان يحب أن يربح ، ويريد أن يكسب ، وإذا تيسر له الكسب بدون جهد يذكر، وبقدر أكبر ، فمـا مـن شـك أن سيكون أشد حرصاً وأعظم اهتماماً بـذلك ، فـإذا ضُـمن لـه ذلك المغنم في كـل يـوم فـإنه سـيواظب بلا انقطـاع علـى التحصيل وجمع المزيد ؛ لأن ذلك يعظم أربـاحه ويزيـد مـاله ولن يدخر جهداً في سبيل حصوله علـى ذلـك الكسـب مـن ذلك المورد ، ولن يفرط في أي سبب ، ولـن يتـأخر عـن أي موعد ، ومثل هذا ستراه بعـد زمـن وقـد عظمـت مغـانمه ، وزادت مكاسبه .

والآن ما رأيك لـو أنـك أنـت – أخـي القـارئ – الـذي دعيـت لتأخذ تلك المغانم ، وتنـال تلـك المكاسـب ، إنهـا تبـذل لـك وتقيد في رصيدك ، بدون أي تأخير أو تقصير ، هل سـتفرط فيها أو تتنـازل عنهـا ؟ إن تفكيـرك فـي مصـلحتك وفائـدتك سيمنعك من ذلك .

وأريدك الآن أن تواصل معي وتعطيني رأيك أيضاً ، ما قولك لو أن الدعوة إلى تلك الغنائم كانت للجميع ، وكل من حضر في الوقت المحدد ويؤدي العمل الميسـر سـينال أعطيـات جزيلة ، ومنحاً عظيمة ؟ ألست معي أن الجميع سيبادرون ، وسيوصي كل أحد أبناءه وأقرباءه ليشـاركوا فـي الحصـول على الغنائم ، وسيكون المتخلف عن ذلـك – عنـد الجميـع – مفرطاً وجانياً على نفسه ، ومضيعاً للفرصة العظيمـة فـي الحصول على الغنيمة الكبيرة ولنقل إن تلك الغنائم تقـدمها دولة غنية ، أو جمع مـن كبـار الأثريـاء ، وأن المكافـأة الـتي تعطى كل يوم هـي عشـرة آلاف ريـال ، يتسـلمها كـل مـن يأتي إلى المكان المحدد ولوقت المحدد ويؤدي عملاً يسيراً يستغرق نحو ربع ساعة ، وإن زاد لايتجاوز نصـف السـاعة ، فما رأيك بعد كل هذا الإيضاح فيمن يترك ذلك ويتخلف عنـه

ولا يبادر إليه بسبب رغبته في النوم وحبه للراحة !! وما عساك أن تقول فيمن يكاد يتخلف عن ذلك يوم ويضيع بالتالي عشرة آلاف ريال كل يوم !.

وأخيراً دعني أخبرك أن الذي يعطي تلك الغنائم ليس غنياً من الأغنياء وإنما هو الله رب الأرض والسماء ، وأن الغنائم ليست دراهم ولا دنانير ولا ذهباً ولا فضة ، وإنما هي الحسنات والدرجات والجنات .

أليس من الأحرى أن يزداد الحرص ويعظم الاهتمام ؟ لأن المعطي هو الذي لا تنفد خزائنه ، ولا يُخلف وعده ، ولأنه الكريم الذي لا منتهى لكرمه ، والعظيم الذي لاحد لعظمته .

أليس من الأحرى أن لا تفوت الفرصة ، ولا تضيع الغنيمة ؟ أليس كل مفرط مغبون ؟ أليس كل مقصر خاسر ؟ أليس كل مضيع محروم ؟ بلى والله ، وما أعظم الخسران لمن ضيع الغنائم وهو نائم ، لم يكن به مرض مقعد ، ولا حال دونه ودون مراده عدو قاهر .
إنني أعني بكل ما سبق النائمين المتخلفين عن صلاة الفجر وإنني لأهمس - بل أصرخ – في أذن كل منهم : " الغنائم أيها النائم".

*** غنائم الفجر**

الغنيمة الأولى : الحرية الإيجابية :

عن أبي هريرة – رضي الله عنه -، عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم - أنه قال : (يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب على كل عقدة ، عليك ليل طويل فارقد ،فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان) [متفق عليه] .
الشيطان يقيّدك ، وعن الخير يقعدك ، وفي أسره يحبسك ، إنه يصدك عن الذكر ويحرمك من عظيم الأجر ، إذا أردت

أن تجيب النـداء " حـي علـى الصـلاة" ردك بـالترغيب فـي النـوم ، وإذا سـمعت المقارنـة " الصـلاة خيـر مـن النـوم" صرفك عن الخير بالمزيد من النوم ؛ فإن كنـت ذا عزيمـة ، وتنبهت وتوضأت وبادرت إلـى أداء الصـلاة ، كنـت فـي كـل خطوة تحطم قيداً من قيوده ، وتهزم جنداً من جنوده ، وما تزال مواصلاً تذكر الله فتحل عقدة ، ثم تمضي مصرّاً على مخالفته فتتوضأ فتنحـل الثانيـة ، ثـم تتـابع مقبلاً علـى اللـه فتقل قوته وتنفك من أسره فتصبح وقد تحررت من قيـده ، وتغلبت على مكره وكيده .
ذكر القرطبي - رحمه اللـه - فـي قـوله – صـلى اللـه عليـه وسلم - : (نم عليك ليل طويـل فارقـد) أن هـذا مـن كيـد الشيطان وتغريره بالإنسان ، وقـال : أنـه – أي الشـيطان - يخـبره عـن طـول الليـل ثـم يـأمره بالرقـاد...ومقصـود الشيطان بذلك تسويفه بالقيام والإلباس عليه ، وفي قوله : (يعقد الشيطان...) نقل ابن حجر : أنه عقد على الحقيقـة كعقد الساحر علـى مـن يسـحره ، كمـا فـي قـوله تعـالى : {ومن شر النفاثات في العقد } ثـم قـال: وقيـل هـو علـى المجـاز كـأنه شـبه فعـل الشـيطان بالنـائم بفعـل السـاحر بالمسحور ، فلما كان الساحر يمنع بعقده ذلك تصـرف مـن يحاول عقده كان هـذا مثلـه مـن الشـيطان للنـائم...وقيـل العقد كناية عـن تثبـط الشـيطان للنـائم بـالقول المـذكور ، ومنه عقدت فلاناً عن امرأته أي منعته عنها [الفتح 3/25] .
وعلى كل فالمراد أن التارك للذكر والطهارة والصلاة واقـع تحت تأثير الشيطان ووسواسه ، بل إن البيضاوي أشار إلى ما يدل على الوقوع تحت سلطان الشـيطان حيـث قـال : " التقيد بالثلاث إما للتأكيد ، أو لأنه يريد أن يقطعـه عـن ثلاثـة أشياء الذكر والوضوء والصلاة ، فكأنه منـع مـن كـل واحـدة منها بعقدة عقدها على رأسه ، وكان تخصـيص القفـا بـذلك لكـونه محـل الـوهم ومجـال تصـرفه ، وهـو أطـوع القـوى للشيطان وأسرعها إجابة لدعوته " [الفتح 3/26] أي كأنما يتحكم فيه فيقوده ويوجهه بسـيطرته وقبضـه علـى قفـاه ،

فهل ترضى أن تكون ذلك المأسور المستعبد ؟ أم تكون ذلك القوي المنتصر - بإذن الله - .
إنه انتصار الطاعة على المعصية ، والذكر على الغفلة ، والعزيمة على الضعف ، والخير على الشر ، فما أعظمها من غنيمة ، احرص عليها ولا تفرط .

الغنيمة الثانية : الانطلاقة الحيوية :

ومرة أخرى نأخذ هذه الغنيمة من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – السابق ، إنها غنيمة حسية مهمة، أثرها ظاهر بل باهر ، وفائدتها أكيدة بل فريدة ، تأمل معي قوله – صلى الله عليه وسلم - فيمن ذكر وتطهر وصلى الفجر: (أصبح نشيط النفس) إن افتتاح اليوم بالذكر والطاعة يجعلك منشرح الصدر ، طيّب الخاطر، قوي العزم ، متجدد النشاط ، تنطلق وفي محياك وسامة ، وعلى ثغرك ابتسامة ، وينفرج –بإذن الله – كربك ، ويزول-بعون الله- همّك ، وترى من نفسك على الخير إقبالاً، وللطاعة امتثالاً، وتجد الأمور ميسرة، والصعاب مذللة، يلقاك التوفيق مع بشائر النهار، ويصحبك النجاح في سائر الأحوال.
وانظر - أخي- إلى من حرم هذه النعمة ، وفاتته تلك المنة .. انظر إليه وقد أصبح في غفلة فإذا هو " خبيث النفس كسلان" ، لا يصحوا إلا متثاقلاً ، وتراه مكدر الخاطر ، ضيق الصدر ، فاتر العزم ، تنظر إليه فكأنما جمع همَّ الدنيا بين عينيه ، وكثيراً ما تتعسر أموره ، وتتعثر مقاصده ، إنه يكون خبيث النفس بسبب" إتمام خديعة الشيطان عليه" ويكون كسلاناً أي متثاقلاً عن الخيرات لا تكاد تسخو نفسه ولا تخف عليها صلاة ، ولا غيرها من القربات ، وربما يحمله ذلك إلى تضييع الواجبات . [المفهم 2/140] .
قال ابن عبدالبر : " هذا الذم يختص بمن لم يقم إلى صلاته وضيعها . أما الذي انبعث للطاعة ، وبادر للصلاة ؛ فإنه يكون " طيب النفس " لسروره بما وفقه الله له من الطاعة ، وبما وعده من الثواب ، وبما زال عنه من عقد الشيطان ،كذا قيل ، والذي يظهر أن في صلاة الليل سراً في طيب النفس [الفتح 3/26] .

ومن معاني النشاط أنه يكون نشيطاً لما يرد عليه من عبادات أخر من صلوات وغيرها ؛ فإنه يألف العبادات ويعتادها حتى تصير له شرباً ، فتذهب عنه مشقتها ولا يستغني عنها [المفهم 2/409] .
إنه ينشط بزوال آخر سحر الشيطان عنه ، وكفايته إياه ، ورجوعه خاسئاً عنه خائباً من كيده [إكمال المعلم 3/142] . فما أحسنها من غنيمة تشبث بها ولا تضيع .

الغنيمة الثالثة : البشارة النورانية :
حديث رواه عن النبي – صلى الله عليه وسلم - ست عشرة صحابياً ، أسوقه لك من رواية بريدة بن الحصيب – صلى الله عليه وسلم - عن النبي – صلى الله عليه وسلم - أنه قال : (بشِّر المشَّائين في الظُلم بالنور التام يوم القيامة) .
الجزاء من جنس العمل ، والحق - جل وعلا – يقول : { هل جزاء الإحسان إلا الإحسان } ، وأنت عندما خرجت لصلاة الفجر ، والظلام مازال يلف الكون ، والدنيا مازالت في الغلس ؛ فإن جزاءك ومكافأتك نور تام يوم القيامة ؛ لأنك أطعت ربك ، وأقبلت على مولاك ، وطلبت النور لقلبك وروحك ، تأمل معي لفظ الحديث : (بشر المشائين) أي من تكرر منه المشي إلى إقامة الجماعة ، (في الظلم) أي ظلمة الليل ، والبشرى هي (النور التام يوم القيامة) ؛ لأنهم لما قاسوا مشقة ملازمة المشي في ظلمة الليل إلى الطاعة جوزوا بنور يضيء لهم يوم القيامة ، وهو النور المضمون لكل مشاء إلى الجماعة في الظلم .
ولماذا وصف النور بالتام ؟ والجواب : أن أصل النور يعطى لكل من تلفظ بالشهادتين من مؤمن أو منافق لظاهر حرمة الكلمة ، ثم يقطع نور المنافقين .
وأما تقييده بيوم القيامة فقال الطيبي : " تقييده بيوم القيامة تلميح إلى قصة المؤمنين وقولهم فيه : { ربنا أتمم لنا نورنا } ففيه إيذان أن من انتهز هذه الفرصة - وهي المشي إليها في الظلم في الدنيا - كان مع النبيين والصديقين في الأخرى {وحسن أولئك رفيقاً } " . [فيض

القدير 3/201] الله أكبر ، متى يأتيك النور ؟ إنه يقدم لـك في موقف عصيب ، وهول رهيب ، إنه يسطع بين يديك فـي وقت أحوج ما تكون إليه ، اقرأ معي قول الله تعالى : {يوم تـرى المـؤمنين والمؤمنـات نـورهم يسـعى بيـن أيـديهم وبأيمـانهم بشـراكم اليـوم جنـات تجـري مـن تحتهـا الأنهـار خالدين فيهـا ذلـك الفـوز العظيـم * يـوم يقـول المنـافقون والمنافقات للذين آمنـوا انظرونـا نقتبـس مـن نـوركم قيـل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور لـه بـاب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب } .
لله ما أعظمها من نعمة يكون لهم النور في ذلـك الموقـف الهائل الصعب كـل علـى قـدر إيمـانه ، ويبشـرون عنـد ذك بأعظم بشارة فيقال : {بشـراكم اليـوم جنـات تجـري مـن تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم } .
فالله ما أحلى هـذه البشـارة بقلـوبهم ، وألـذها لنفوسـهم ، حيث حصل لهم كل مطلوب محبوب ، ونجـوا مـن كـل شـر مرهوب .
فإذا رأى المنافقون المـؤمنين يمشـون بنـورهم ، وهـم قـد طفئ نورهم وبقوا في الظلمات حائرين ،قالوا للمــؤمنين : {انظرونا نقتبس من نوركم } أي أمهلونا لننال مـن نـوركم ما نمشي به لننجـو مـن العـذاب . { قيـل ارجعـوا وراءكـم فالتمسوا نوراً } أي إن كان ذلك ممكنـاً ، والحـال أن ذلـك غير ممكن بل هو من المحالات ، { فضرب بينهم بسـور لـه بـاب بـاطنه فيـه الرحمــة } وهــو الــذي يلــي المــؤمنين {وظاهره من قبله العذاب } وهو الذي يلـي المنـافقين . [تفسير السعدي 7/290] .
وقد أورد ابن كثير في تفسـيره [4/308]ـ عـن ابـن أبـي حاتم بسنده إلى أبي الدرداء وأبي ذر – رضي اللـه عنهمـا - يخبران عن النبي – صلى الله عليه وسلم - أنه قـال : (أنـا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة ، وأول من يـؤذن لـه برفع رأسه فانظر من بيـن يـدي ومـن خلفـي وعـن يمينـي وعن شمالي فأعرف أمتي من بين الأمم) فقال له رجـل : " يا نبي الله كيف تعرف أمتك من بيـن الأمـم مـا بيـن نـوح إلى أمتك؟ " فقال : (أعرفهم محجلون مـن أثـر الوضـوء ،

ولا يكون لأحد من الأمـم غيرهـم ، وأعرفهـم يؤتـون كتبهـم بأيمـانهم ، وأعرفهـم بسـيماهم فـي وجـوههم ، وأعرفهـم بنورهم يسعى بين أيديهم) .
صلاة الفجر تؤهلك لتكون من أهل النور في وقـت يتخبـط فيه الآخرون في الظلمـات ، فمـا أجزلهـا مـن غنيمـة، بـادر إليها ولا تتأخر .

الغنيمة الرابعة : الشهادة الملائكية :
يقول الحق - جل وعلا - : { أقـم الصـلاة لـدلوك الشـمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً } ، والمفسرون يذكرون عند هذه الآية حديث أبي هريـرة – رضي الله عنه - ، عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم - أنه قال : (يتعاقبون فيكم ملائكـة بالليـل وملائكـة بالنهـار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثـم يعـرج الـذين باتوا فيكم فيسـألهم اللـه- وهـو أعلـم بهـم- : كيـف تركتـم عبادي ؟ فيقولون : تركنـاهم وهـم يصـلون، وأتينـاهم وهـم يصلون) [متفق عليه] .
إن السائل هو الله ملك الملوك ، والمسئولون هم الملائكـة الذين {لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يـؤمرون } و { لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون }، نعم هؤلاء الملائكة المقربون يشهدون لك عند الله ، ويذكرونك بـأداء الصـلاة ، ويمـدحونك بشـهودك الجماعـة ، الملائكـة الأبـرار الأطهـار يشهدون أنك من العباد المصلين الأخيار .
تأمل معي :" لطف الله تعالى بعباده وإكرامه لهم بأن جعل اجتماع ملائكته في حال طاعة عباده لتكـون شـهادتهم لهـم بأحسن الشهادة " [الفتح 2/35] .
وتأمل معي أيضاً حكمة سؤال الله للملائكة كما ذكرها ابــن حجر في قوله : " قيل الحكمة فيه استدعاء شهادتهم لبنـي آدم بالخير واستنطاقهم بما يقتضي التعطف عليهـم، وذلـك بإظهار الحكمة من خلق الإنسان في مقابلـة مـن قـال مـن الملائكة : {أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم مالا تعلمــون } أي وقد وجد فيهم من يسبّح ويقدّس مثلكم بنص شــهادتكم " .

ورد الحديث أيضاً " فيه الإخبار بما نحن فيه من ضبط أحوالنا حتى نتيقظ ونتحفظ في الأوامر والنواهي ، ونفرح في هذه الأوقات بقدوم رسل ربنا وسؤال ربنا عنّا ، وفيه إعلامنا بحب ملائكة الله لنا لنزداد فيهم حباً ونتقرب بذلك " [الفتح 2/37]ـ ، فهل رأيت أثر صلاة الفجر في صلتك بالملائكة وشهادتهم لك.
وفي التفسير مزيد من القول أنقله لك من تفسير الألوسي عند قوله تعالى : { إن قرآن الفجر كان مشهوداً } حيث قال : أخرج النسائي وابن ماجه والترمذي والحاكم وصححاه وجماعة عن أبي هريرة – رضي الله عنه - عن النبي – صلى الله عليه وسلم - أنه قال في تفسير ذلك : تشهده - أي قرآن الفجر - ملائكة الليل وملائكة النهار ، وقيل يشهده كثير من المصلين في العادة ، وقيل من حقه - أي قرآن الفجر - أن تشهده الجماعة الكثيرة ، وقيل تشهده وتحضر فيه شواهد القدرة من تبدل الضياء بالظلمة والانتباه بالنوم الذي هو أخو الموت .
وأختم هذه الغنيمة بقول الألوسي المفسر - رحمه الله - : " ولا يخفى ما في هذه الجملة من الترغيب والحث على الاعتناء بأمر صلاة الفجر ؛ لأن العبد في ذلك الوقت مشيع كراماً ، ومتلقى كراماً ، فينبغي أن يكون على أحسن حال يتحدث به الراحل ويرتاح إليه النازل " . فما أجلها من غنيمة ، فلا تغب عن شهودها .

الغنيمة الخامسة : الحصانة الإلهية

عن جندب بن سفيان – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : (من صلى الصبح فهو في ذمة الله ، فانظر يا ابن آدم لايطلبنك الله من ذمته بشيء) [رواه مسلم] .
إنها حصانة إلهية ، وحماية ربانية تكون بها-إذا صليت الفجر- في ذمة الله أي في حفظه، يصرف عنك الشرور ، ويبعد عنك الأذى ، ويسلمك من مهاوي الردى ، إنه حفظ عظيم فريد ، وإنه لشرف كبير أن تكون أيها العبد الضعيف في

حماية الملك العظيم رب الأربـاب ، وملـك الملـوك ، وجبـار السماوات والأرض - سبحانه وتعالى - .
إن الله يدافع عنك ، ويحذر من يتعـرض لـك بـالأذى ، فـأنت فـي ذمـة اللـه ، أي فـي آمـان اللـه وفـي جـواره ، أي قـد استجار بالله تعالى ، والله تعالى قد أجاره ، فلا ينبغي لأحـد أن يتعرض له بضـر أو أذى ، فمـن فعـل ذلـك فـالله يطلـب بحقه ، ومن يطلبه لم يجد لـه مفـراً ولا ملجـأ ، وهـذا وعيـد شديد لمن يتعرض للمصلين . [المفهـم 2/282] . وعلـى هذا فمعنى قوله – صلى الله عليـه وسـلم - : (لا يطلبنكـم الله في ذمته بشيء) هو نهي للنـاس مـن أن يتعرضـوا لـه بشـيء ؛ فـإن فعلـوا فـإن اللـه يتهـددهم . [حاشـية إكمـال المعلم 2/630] .
ومن جهة أخرى في الحديث تنبيه مهم لا بد مـن العنايـة بـه والانتباه له ؛ فإن صلاة الفجر هي سبب ذلك الآمان والجوار ؛ فإن تركتها لم يكن آمان ولا جوار ؛ والمعنى الضـمني فـي الحديث " لا تتركوا صلاة الصبح فينتقض العهد الـذي بينكـم وبين الله عز وجل " [حاشية إكمال المعلم 2/630] .
إنها ثمرة عظيمة ، وغنيمـة جسـيمة ، وأنـت يـا مـن صـليت الفجر المؤهل لنيلها ، فلا تفـوت الغنيمـة ، وتعـرض لهـا ولا تُعرض .

الغنيمة السادسة : النجاة العظمى

عن أبي زهير عمارة بـن رويبـة – رضـي اللـه عنـه - قـال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسـلم - يقـول: (لـن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) يعني الفجر والعصر [رواه مسلم] .
حديث عظيم ، وبشارة كـبرى ، إنهـا السـلامة والأمـان مـن عذاب النيران ، إنه المطلب العظيم والسؤال الـدائم لأهـل الإيمان { الذين يقولون ربنا إننا آمنا فـاغفر لنـا ذنوبنـا وقنـا عذاب النار } .. { ربنا ما خلقت هـذا بـاطلاً سـبحانك فقنـا عذاب النار } .. { والذين يقولون ربنـا اصـرف عنـا عـذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنهـا سـاءت مسـتقراً ومقامـاً } ، إن صـلاة الفجـر صـمام أمـان مـن النـار ، وسـبب مـن

أسباب النجاة من عذابها ، ومعنى الحديث : " لن يلـج النـار من عاهد وحافظ على هاتين الصلاتين ببركة المداومة عليها " [المفهم 2/262] .
عذاب النار الذي تخلع منه قلـوب المـؤمنين ، وتشـفق منـه نفوسهم ، وحق لهم ذلك فما أخبر الله به عنهـا فيـه أعظـم التهديد وأشد الوعيد إنها النـار { وقودهـا النـاس والحجـارة } ، وظلها { لا ظليل ولا يغني من اللهب } وطعامهــا { إن شجرة الزقوم طعام الأثيم * كالمهل يغلـي فـي البطـون * كغلي الحميم } وهو أيضاً كما وصف الله - جلا وعلا – { إن لدينا أنكالاً وجحيماً * وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً } ، وأما الشراب فهو الحميم كما في القران الكريـم : { فشـاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم } وقـال عنـه : { وإن يسـتغيثوا يغـاثوا بمـاء كالمهـل يشـوي الوجـوه بئـس الشراب وساءت مرتفقا } أنه الشراب الـذي لا يطـاق بـل هو عين العذاب وصاحبه { يتجرعه ولا يكاد يسيغه } عذاب النار الهائل الذي { يود المجرم لو يفتدي من عـذاب يومئـذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته الـتي تـؤويه * ومـن فـي الأرض جميعاً ثم ينجيه } ، إنه لعذاب رهيب ، الجلود تحترق وتنضج وتعود وتتجـدد ثـم تحـرق { إن الـذين كفـروا بآياتنـا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غير جلودهم ليذوقوا العذاب } والأمعـاء تتقطـع { وسـقوا مـاء حميماً فقطع أمعاءهم } ، والوجوه تكـب وتسـحب { ومـن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار } .. { يـوم يسـحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر } .
وأسوأ من ذلك أنها تسود { يوم تبيض وجوه وتسـود وجـوه فأما الذين اسودت وجـوههم أكفرتـم بعـد إيمـانكم فـذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون } ، إنه العذاب فـي شـتى الصـور والألوان { والذين كفروا قطعت لهـم ثيـاب مـن نـار يصـب مـن فـوق رؤوسـهم الحميـم * يصـهر بـه مـا فـي بطـونهم والجلود * ولهم مقامع من حديد } إنها النار من كـل جـانب { وإن جهنم لمحيطة بالكافرين } كل هـذا الهـول العظيـم والعذاب الأليم ألا تخشـى منـه ؟ ألا ينخلـع قلبـك خشـية أن تستوجب شيئاً منه ؟ أليست إذن نعمة كبرى ، ومنّة عظمى

أن تسلم وتنجـو منـه ؟ إنـه غنيمـة لا يمكـن أن تقـدر بثمـن فعليك بها ، ولا تدعها تفلت .

الغنيمة السابعة : الغاية الكبرى

دخول الجنة والفوز بنعيمها غاية الغايات ، وأسمى الأمنيـات ، ومنتهى الآمال بالنسـبة للمـؤمنين ، إنـه رجـاؤهم الـدائم ، ودعاؤهم المستمر ، إنه الفـوز الحقيقـي بعـد رحلـة الحيـاة الدنيا بكل ما فيها { كل نفـس ذائقـة المـوت وإنمـا توفـون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقـد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور } إنه الثمن الذي تبـذل لأجله الأموال ، وتزهق فيه سبيل الأرواح { إن الله اشـترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فـي سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فيقتلون ويقتلون وعـداً عليـه حقاً في التوراة والإنجيل والقـران ومـن أوفـى بعهـده مـن الله فاستبشـروا بـبيعكم الـذي بـايعتم بـه وذلـك هـو الفـوز العظيم } إنه الجزاء العظيم الذي لا ينال إلا بالجهـد الكـبير { أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يـأتكم مثـل الـذين خلـوا من قبلكـم مسـتهم البأسـاء والضـراء وزلزلـوا حـتى يقـول الرسول والذين آمنوا معه متى نصـر اللـه ألا إن نصـر اللـه قريـب } إنـه الثـواب الـذي لا ينـال إلا بجهـد وجهـاد وصـبر ومصابرة {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الـذين جاهدوا منكم ويعلـم الصـابرين } .. { ومـا يلقاهـا لا الـذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم } .

الجنة التي فيها { أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لـم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسـل مصفى } وفيها { غرف من فوقها غرف مبنيـة تجـري مـن تحتها الأنهار } .. { فيها فاكهة ونخل ورمان } ، أكـل أهلهـا { فاكهـة ممـا يتخيـرون * ولحـم طيـر ممـا يشـتهون } ، ولباسـهم { يحلـون فيهـا مـن أسـاور مـن ذهـب ولؤلـؤاً ولباسهم فيهـا حريـر } ، وخـدمهم {يطـوف عليهـم ولـدان مخلدون } ، وآنيتهـم { يطـاف عليهـم بصـحاف مـن ذهـب وأكواب } ، ومجالسهم {متكئين علـى فـرش بطائنهـا مـن إستبرق }، ومع ذلك لهم {حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون

} إنه نعيم ما بعده نعيم { كلما رزقوا منها من ثمـرة رزقـاً قالوا هذا الذي رزقنا به من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهـرة وهـم فيهـا خالـدون } ، إنـه فـوق الوصـف وأعظم من الخيال { فلا تعلم نفس ما أخفي لهم مـن قـرة أعين جزاء بما كانوا يعملون } .
ألا تشتاق لذلك نفسك ؟ ألا تتعلق بـه آمالـك وطموحاتـك ؟ ألا تحب أن تكون من أهلها ؟ خذها غنيمة من غنائم الفجر.
من غنائم الفجـر دخـول الجنـة ، كمـا ورد فـي حـديث أبـي موسى الأشعري – رضـي اللـه عنـه - ، عـن رسـول اللـه – صلى الله عليه وسلم - أنه قال : (من صلّى البردين دخــل الجنة) [متفق عليه] . حديث مـوجز فـي خمـس كلمـات ، لكنه واضح الدلالة ، وهو نص صريح في بيان أن مـن غنـائم الفجر دخول الجنة ، فمـا أغلاهـا مـن غنيمـة !، عـض عليهـا بالنواجذ ولا تفوت .

الغنيمة الثامنة : الزيادة الفريدة

يقول الله - عز وجل - : { للذين أحسنوا الحسنى وزيادة } ، وقد ورد في تفسير للآية من قول المصطفى – صلى اللـه عليه وسلم - حيث جاء : " إنها نعمة ما بعدها من نعمة، إنـه إكـرام لمـن فـاز بالجنـان بمزيـة رؤيـة الرحمـن - سـبحانه وتعالى – { وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة } .
إن من ثمار صلاة الفجر الظفر بهذه الرؤية التي هي أعظم من كل أجـر ، وفـي ذلـك جـاء حـديث جريـر بـن عبـد اللـه البجلي – رضي الله عنه – قال : كنا عند النبي – صـلى اللـه عليه وسلم - فنظر إلى القمـر ليلـة البـدر، فقـال : (إنكـم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تُضامون فـي رؤيتـه ؛ فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشـمس ، وقبل غروبها فافعلوا) . [متفق عليه] .
الله أكبر رؤية الباري جل جلاله ، يوم يأذن بـذلك للمـؤمنين يوم القيامة، من أسبابها الميسرة، وأبوابها المشرعة صـلاة الفجــر ، والربــط فــي الحــديث ظــاهر وإليــك البيــان، فالمصطفى – صلى الله عليه وسلم - يخـبر أن المـؤمنين سيرون ربهم ، ثم يزيد ذلك توكيداً من خلال بيانه أنها رؤيــة

واضحة كاملة كوضوح رؤيتهم للقمر ليلة البدر ، ويزيد في التوكيد بقوله : (لا تضامون في رؤيته) أي لا يلحقكم ضيم ولا مشقة في رؤيته ؛ فإنها تكون سهلة وواضحة ، وبعد ذلك يحث المؤمنين بالحرص والمبادرة على أداء الصلاة قبل طلوع الشمس - والمراد صلاة الفجر - ، وكذلك الصلاة قبل غروب الشمس - والمراد صلاة العصر - ، وقوله : (إن استطعتم أن لا تغلبوا) إشارة إلى وجود مثبطات وعوائق تقعد المسلم عن تلك الصلوات ، فدعاه رسول الهدى – صلى الله عليه وسلم - أن يغالب تلك العوائق وأن لا يسمح لها أن تغلبه ، ومراد المصطفى – صلى الله عليه وسلم - بذكر هاتين الصلاتين بعد الرؤية ، الدلالة على أنهما مما يكون سبباً في حصول المؤمن للرؤية واستحقاقه لها .
قال ابن حجر - رحمه الله تعالى - : " وجه مناسبة ذكر هاتين الصلاتين عند ذكر الرؤية ، أن الصلاة أفضل الطاعات ، وقد ثبت لهاتين الصلاتين الفضل بالنسبة إلى غيرهما ، ذكر من اجتماع الملائكة ورفع الأعمال وغير ذلك فهما أفضل الصلوات فناسب أن يجاز المحافظ عليهما بأفضل العطايا وهو النظر إلى الله تعالى " .
تأمل عظمة هذه النعمة فيما رواه مسلم من حديث صهيب الرومي أن المصطفى – صلى الله عليه وسلم – قال : (إذا دخل أهل الجنة الجنة ، يقول الله - تبارك وتعالى - : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ قالوا : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال: فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجه ربهم تبارك وتعالى) .
أما تعلم أن من دعاء النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم - : (اللهم إني أسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة) [صحيح ابن حبان] .

الغنيمة التاسعة: قيام الليل

قيام الليل عبادة عظيمة كان للمصطفى – صلى الله عليه وسلم - بها اختصاص مذكور في قوله تعالى : {ومن الليل

فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربـك مقامـاً محمـوداً } وسياق الآية مشعر بفضل قيام الليل وعظيـم أثـره ، وذلـك لربطه بما ذكر بعده من نيل المصطفى – صـلى اللـه عليـه وسلم - المقام المحمود ، وهو مقام الشفاعة يوم القيامة ، وقيـام الليـل عمـل ذكـره الحـق - جـل وعلا - فـي أعمـال وأوصاف المؤمنين حيث قال : { إنما يؤمن بآياتنا الـذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون * تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفـاً وطمعـاً ومما رزقناهم ينفقون } . وامتدح الله به المتقين عند ذكر أنهم { كانوا قليلاً من الليـل مـا يهجعـون * وبالأسـحار هـم يستغفرون } وعده من خلال عباد الرحمن فقال في حقهم : { والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً }.

قيـام الليـل مدرسـة الإيمـان والتقـوى ، ومنبـع التزكيـة والتطهيـر، بـه تحيـا القلـوب وتـزداد إشـراقاً ، وبـه تسـمو النفوس وتمتلئ أشواقاً ، فيه تذرف العيون دمـوع الخشـية والندامة ، وتلهج الألسن بدعوات التضرع والإنابـة ، وتتمـرغ الجباه في سجود الذل والاستكانة .

قيام الليل مظنة إجابة الدعاء كما قال خاتم الرسل والأنبياء – صلى الله عليه وسلم - : (إن في الليل لساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيراً من أمر الدنيا والآخـرة إلا أعطاه الله إياه ، وذلك في كل ليلة) [رواه مسلم] .

وهو من أسباب دخول الجنة كما يبين البشير النـذير - عليـه الصلاة والسلام - حين قال : (أيها النـاس أفشـوا السـلام ، وأطعموا الطعام ، وصلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام) [رواه الترمذي] .

وقيـام الليـل أفضـل الصـلاة بعـد الفريضـة بنـص حـديث الرسول – صلى الله عليه وسلم - . رواه مسلم .

والآن لعلك تقـول كمـا يقـول كـثير مـن النـاس- وكلنـا ذاك الرجل – : "لم نعد نقوم الليل، ولا طاقـة لنـا بـه ، ضـعفت عنه هممنا ، وقعدت عنـه عزائمنـا ، وثقلـت عـن القيـام بـه أجسادنا ، وشـغلتنا عنـه أموالنـا وأهلونـا ، ومـع أننـي أدعـو نفسي وأدعوك وأدعو كل مسلم أن لا يفوّت قيام الليل ولو ركعتين ؛ فإن في ذلك خير كثير ، وأجـر كـبير ، ولكننـي مـع

ذلك أسوق لك غنيمة عظمى من غنائم الفجر ، إذا أديت صلاة الفجر فكأنما قمت الليل كله ، نعم !كله لا بعضه ، وليس هذا من عندي ، بل هي غنيمة جاء بها حديث المصطفى – صلى الله عليه وسلم - الذي يرويه عثمان بن عفان – رضي الله عنه – ، عنه - عليه الصلاة والسّلام - أنه قال : (من صلى العشاء في جماعة ، فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله). [رواه مسلم] .
إذن فأنت بذلك تنال غنيمة جديدة أكيدة ، فتمسك بها ولا تفرّط .

الغنيمة العاشرة: الخير العميم

خير بلا حد ، وفضل بلا سد ، وحسنات بلا عد ، عطاء يفوق الوصف ، وهبات تزيد على الضعف ، لا لا تقل إنها مبالغات ، كلا ! فهذا جود رب الأرض والسماوات ، إنه الذي لا تنفذ خزائنه ، ولا ينقص ملكه ، وإن أعطى كل سائل مسألته .. {ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما } .
تصور- أخي القارئ- أن هذه الغنيمة التي سأخبرك بها ليست من غنائم صلاة الفجر ، بل هي غنيمة ركعتي السنة قبل صلاة الفجر ، ولك -بعد أن تعرف الغنيمة – أن تتساءل وتقول : إذا كان هذا لركعتي السنة ، فكيف إذن ركعتي الفريضة ؟ .
اقرأ معي حديث عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها - ، عن النبي – صلى الله عليه وسلم - : (ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها) رواه مسلم ، وفي رواية : (لهما أحب إليّ من الدنيا وما فيها) .
سبحان الله (خير من الدنيا وما فيها) !! الدنيا بذهبها وفضتها ، وجمالها ونسائها ، الدنيا بكل ملذاتها وشهواتها {زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث } نعم ركعتا الفجر خير من كل ذلك ، ويعدل كل ذلك ويزيد عليه ، والرواية الثانية مؤيدة ومؤكدة لهذا المعنى عندما جاء لفظها بالمقارنة بين الدنيا وركعتي

الفجر وقال الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – (لهما أحب إليّ من الدنيا جميعاً) ، إذن فكرر معي فكيف صلاة الفجر ذاتها ؟ .
إنها غنيمة بلا حدود ، فاسع إليها وقيدها بالقيود ؛ فإن عائشة – رضي الله عنها – قالت : (لم يكن النبي – صلى الله عليه وسلم - على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر) [متفق عليه] .

الغنيمة الحادية عشر: الحجة التامة

لاشك أنك تعرف أن الحج ركن من أركان الإسلام ، وأن أجره عظيم يخرج به الإنسان من كل ذنوبه ويعود كما ولدته أمّه ، وهو فريضة في العمر مرة واحدة ، وغنائم الفجر تمتد حتى تشمل الحج والعمرة وأجرهما معاً .
رأيت معي الغنيمة العظمى فيما قبل الفجر ، وهذه أخرى جليلة وهي فيما بعد الفجر ، فعن أنس – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : (من صلى الفجر في جماعة ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ، ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة) [رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح] .
وأزيدك أيضاً فعن أبي أمامة قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : (من صلى صلاة الغجر في جماعة ، ثم جلس يذكر الله حتى تطلع الشمس ، ثم قام وصلى ركعتين ، انقلب بأجر حجة وعمرة) قال المنذري : رواه الطبراني وإسناده جيد [الترغيب والترهيب 1/296] .
واقرأ معي أيضاً حديث أبي ذر – رضي الله عنه - عن المصطفى – صلى الله عليه وسلم - : (من قال دبر صلاة الفجر - وهو ثان رجليه قبل أن يتكلم - : " لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك يحي ويميت وهو على كل شيء قدير عشر مرات ، كتب الله له عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، وكان يومه ذلك كله في حرز من كل مكروه ، وحرس من الشيطان ، ولم ينبغ بذنب أن يدركه في ذلك إلا الشرك بالله تعالى) .

ألا ترى كم هي عظيمة وجليلة هذه الفضائل في أعقاب الفجر ، وبعد أداء الفريضة في ذلك الوقت الذي فيه الهدوء والسكينة والنسمات الندية العليلة ، لتبدأ يومك بعد الفجر بالذكر ، وتنال عظيم الأجر .
فهل تترك ذلك مع ما فيه من حياة القلب ، وسمو الروح ، وزكاة النفس لأجل نعاس يداعب جفنيك أو قليل من التعب يوهن جسمك ؟ ولو تأملت وعزمت لهان الأمر عليك وتيسر الأداء لك ؛ فإنما هي ساعة لا أكثر .
فيالها من غنيمة واظب عليها ولا تتقاعس ولا تكسل .

الغنيمة الثانية عشر: البركة الباكرة

روى جابر عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم - أنه قال: (اللهم بارك لأمتي في بكورها) [رواه الطبراني في الأوسط] والبكور أول النهار ، وقد جعل الله فيه البركة وهي : النماء والزيادة . فالمبارد المبكّر إلى أي عمل يجد بركة من الله - تعالى - في عمله ؛ فإن توجه لطلب العلم وجد سهولة في الفهم ، وقدرة على التحصيل ، وسرعة في الاستيعاب ، وإن بدأ حفظ القرآن رأى يسراً في الحفظ ، وجودة في الضبط ، واتقاناً في المراجعة والاستذكار ، وإن سعى لطلب رزق وجد كثرة في الرزق وزيادة في الدخل ، وإن مضى لأداء مهمة تيسرت أسبابها وذللت صعابها .
إن وقت البكور تتوفر فيه أسباب النجاح وجودة الأداء ؛ لأن الجسم يكون في كامل طاقته ، وذروة نشاطه بعد اكتمال راحته وتمام نومه ، كما أن الذهن يكون صافياً لعدم انشغاله وهدوء باله ، إضافة إلى أن وقت البكور فيه هدوء وسكينة لقلة الناس وندرة الحركة ، ويزاد على ذلك أن تلك الساعات الأولى تضيف فسحة من زمن النهار يتضاعف بها الإنتاج ، وتزداد بها المنجزات .
والذين يصلون الفجر في وقتها يدركون البكور وينالون بركته ، ويجنون ما فيه من المنح الحسية والمعنوية وتلك أيضاً غنيمة فاغتنمها ولا تكن من الخاسرين .

أيها النائم :

بعد هذا الحشد الكبير ، والسرد العظيم لهـذه الغنـائم الـتي فيهـا أجـر عظيـم ،وفضـل كـبير ، ومنـافع دنيويـة ، وأخـرى أخروية ، وفيها نعمة دخول الجنة ، ولذة النظر إلى وجه الله - جل وعلا – بعد هذا كله هل تطيب نفسك أن تحرمهـا مـن كل ذلك لأجل نوم على فـراش وثيـر فـي هـواء بـارد ؟ هـل يعقل أن تستسلم لضعفك لمجرد طلب المزيد من الراحة ، أو عدم مقاومة قليل من التعب ؟ هل ترضى أن تكـون مـن الغافلين ؟ وهل تحـب أن تكـون مـن المحروميـن ؟ ألسـت ترى آثار ترك صلاة الفجـر وتأخيرهـا ؟ ألا تراهـا فـي محـق البركة وخبث النفس وثقل البدن ؟ ألا تشعر بجفاف الـروح وقسوة القلب ؟ أين أنت من نداء الأذان يشق صمت الليـل بكلمة التوحيد والدعوة للفلاح ؟ وأين أنت من قـرآن الفجـر يصب في سمع الزمان آيات الله في كل مكان ؟ وأين أنـت من أفواج الملائكة بالآلاف المؤلفة وهي نازلة صـاعدة ؟ ألا يوقظـك كـل هـذا ويحـرك مشـاعرك ؟ ألا يهيجـك لتـترك مضجعك وتفـارق مرقـدك وتهـب إلـى الصـلاة وتبـادر إلـى الفلاح ؛ لتكتب فـي الـذاكرين وتكـون مـن العابـدين وتنـال البشريات وتحظى بالأعطيات ؟ .

إنني أدعو فيك إيمانك بالله وهو مستقر في قلبك وهــو يملأ نفسك .. إنني أخاطب فيك إيمانك بالمصطفى – صلى الله عليه وسلم - وهو الـذي يملأ بحبـه قلبـك ، وينطـق بالصـلاة والسلام عليه لسانك ..إنني أدعوك إلـى الخيـر الـذي تحبـه والأجر الذي تنشده فلا ولا ولا تكن من الغافلين النائمين .

ويحك أيها النائم إن جوائز الدنيا وأعطيات أهلها رغم أنهـا لا تعدل شيئاً مقارنة بما ذكرت لك من غنائم الفجر ؛ فإنها مع ذلك لا تكون إلا نادراً ولا تتكرر إلا الفترة والفترة ومع ذلك ؛ فإنني أعلم أنك تستعد لها في كل مرة ، وتفرغ لها نفسك ، وتبذل لأجلها جهدك ، وتخفف وربما تكفـي لنيلهـا راحتـك ؟ ألست إذا كان عندك مهمة في العمل لها أثرها فـي مرتبـك ومرتبتك سهرت لأجلها الليل الطويـل ، أو ذهبـت إليهـا فـي منتصف الليل أو آخـره ؟ وذلـك لكـي تنـال منفعـة عارضـة

لمرة واحدة فما بالك تترك المنافع العظيمة مع كل انبثـاق فجر باستمرار لا انقطـاع معـه ، وكـرم وعطـاء لا يتبـدل ولا يتغير .

« أيها النائم استيقظ وبادر إلى الغنائم » .